دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النموى الديني ومنشأ التدين لدى الإنسان
المصدر:	مجلة الحكمة
الناشر:	مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع
المؤلف الرئيسي:	علي، بن مصمودي
المجلد/العدد:	ع 19
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2013
الصفحات:	224 - 232
رقم MD:	415012
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الغرائز الجنسية، الإنسان، الأديان السماوية، المعتقدات الدينية، الأساطير، الإلحاد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/415012

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

النمو الديني

ومنشأ التدين لدى الإنسان

الدكتور بن مصمودي علي

جامعة معسكر

إن النمو الديني كجانب مهم من جوانب النمو الإنساني ككل لا زال يحتاج إلى المزيد من البحث، إذ أن الدراسات حول هذا الموضوع قليلة، ولاسيما في الوطن العربي. كما أن لموضوع النمو الديني مساحات مشتركة مع جوانب أخرى من النمو، جعلت من الصعب التمييز بين ما يدخل في إطار النمو الديني و ما يدخل في إطار تلك الجوانب. فعلى سبيل المثال لا الحصر لا نكاد نفرق بين المواضيع الدينية و الموضوع الخلقية؛ فكلاهما يهتم بالقيم والمعايير والأخلاق المرغوبة في المجتمع، إلا أن الفرق بينهما: أن الموضوع الرئيسي للنمو الديني هو الجانب العقائدي كالإيمان بالله والملائكة والشياطين والجنة والنار وما إلى ذلك من أمور ميتافيزيقية ،أما الجانب التشريعي الذي يتضمن المعاملات والأخلاق والقيم فهو أقل أهمية، إذ لا جدوى من التمسك بالأخلاق الحميدة دون اليقين العقائدي الكامل. بينما الموضوع الرئيسي للنمو الخلقي هو تلك القيم و الأخلاق المحببة في المجتمع والتي يدعو إلى تبنيها وتلافي ما سواها، فالأخلاق تبحث في حث الناس على الصدق والابتعاد عن الكذب، وتدعو إلى التعاون وعدم الأنانية. مما سبق يتضح أن المساحة المشتركة بين النمو الديني والنمو الخلقي تتمثل في أن كليهما يهتم بالأخلاق الحميدة ويدعو إلى التمسك بها، أما الاختلاف فيكمن أن الجانب الخلقي هو الموضوع الرئيسي للنمو الخلقي، بينما هو جانب أقل أهمية في مجال النمو الديني.

نحاول في بحثنا هذا أن نلقي الضوء على الاختلاف الحاصل بين الباحثين في رؤيتهم لمنشأ التدين في الإنسان، وعرض خلاصة ما توصل إليه المختصون في علم النفس النمو حول النمو الديني لدى الإنسان.

1. تعريف النمو الديني:

يختص الجانب الديني في الإنسان بمواضيع غيبية كالجنة والنار، والذات الإلهية والملائكة... وما إلى ذلك من المواضيع التي لا ندركها بحواسنا القاصرة، غير أن آثارها تكون بادية لمن يؤمن بها. يميل الإنسان لمعرفة ما وراء الطبيعة وأصله ومصيره ومحاولة وصل نفسه بالخالق (1). ففي مرحلة الطفولة تكون النظرة للمواضيع الغيبية قائمة على أساس التجسيم والتشخيص؛ أي أن الطفل يحاول أن يربط كل مفهوم من المفاهيم الدينية بشيء ملموس، كأن يربط نعيم الجنة بأكل الحلوى، والذات الإلهية بشكل إنسان فخم يلبس عباءة واسعة، ويجلس على الكرة الأرضية. لكن كل هذا ينتهي مع ظهور التفكير المجرد في مرحلة المراهقة، حيث ينزه المراهق نفسه عن مثل هذه التشبيهات التي لا تستند إلى أي دليل.

2. منشأ التدين في الإنسان:

اختلف الباحثون في تحديد أصل التدين في الإنسان، فمنهم من رأى أنه غريزي فطري؛ أي أن هناك غريزة تنزع بالإنسان إلى التدين، مثلها مثل أية غريزة أخرى، كغريزة الجنس، حب البقاء...وقد افترض كل من R.Merry , F.Merry حيث أكدا وجود مثل هذه الغريزة في الإنسان وأطلقا عليها الغريزة دينية Religious Instinct .فالطفل حسبهما هو ذو طبيعة دينية إذا وجد البيئة المناسبة فإنه يكون المفاهيم الدينية ذات المعنى والدلالة؛ إذ أنه في فترة مبكرة يعي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ إليها للحماية ولديه نحوها غريزيا مشاعر الاحترام والرهبة (2). كما يستدل أصحاب هذا الاتجاه على رأيهم بنتائج بعض الدراسات الأنثروبولوجية التي بينت أن هناك شعوبا عاشت منعزلة ولم يصلها أي نوع من التبشير، ومع ذلك كانت متدينة بشكل من الأشكال. إضافة إلى البحوث النفسية التي أثبتت أن الطفل في مرحلة متقدمة (5سنوات) يبدأ في طرح أسئلة دينية مثل: من هو الله؟ أين يسكن؟...

أما الرأي الثاني فيرى أن التدين مكتسب من البيئة عن طريق التنشئة الاجتماعية شأنه شأن أي سلوك اجتماعي آخر؛ ودليلهم على ذلك الاختلاف الحاصل بين الناس في درجة التدين. فبعض المجتمعات التي تولي أهمية للقيم الدينية، نجد أن الدين يشغل مساحة هامة في حياة أفرادها، إذ يكاد يشمل جميع نواحي الحياة؛ فهم يحترمون القيم الدينية ويراعونها في معاملاتهم الاجتماعية

والاقتصادية...

أما المجتمعات التي لا تولي الدين أي اهتمام، فلا نكاد نجد للدين دورا في حياتهم. من رواد الاتجاه الثاني سكينر الذي يؤكد تلك النظرة بقوله :"إن الكائن البشري يولد بحالة حيادية حيال الدين؛ فالرضيع ليس متدينا ولا هو ضد الدين، بل يملك الاستعدادات للتكيف (3).

3. **مراحل النمو الديني**:

اتفقت نتائج العديد من البحوث أن الشعور الديني لدى الطفل يبدأ في سن الرابعة؛ حيث يبدأ الطفل في طرح أسئلة دينية، من قبيل من هو الله؟ أين يسكن؟.. وما يميز التفكير الديني لدى الطفل أنه تفكير قائم على الخيال الحر غي التقليدي. ففي دراسة أجراها هارمس (1944)، حلل خلالها بضعة آلاف من رسومات الأطفال ما بين الثالثة و السادسة، تضمنت أفكارهم عن الله، وجد أن معظم الصور المرسومة تعطيه شخصية أسطورية (4). و بينت نتائج بحوث أخرى أن التعاليم الدينية التي يتلقاها الطفل في الأسرة والمؤسسات الدينية في سن مبكرة تعد عاملا أساسيا في تحديد الاتجاه الديني للفرد لاحقا.

إذن أهم ما يميز التفكير الديني للطفل أنه مبني على المحسوس، إذ يرجع كل شيء غيبي إلى موضوع من المواضيع التي يصادفها في البيئة، ويحاول أن يجد الرابط بينها في خياله الواسع. أما العبادات فما هي، بالنسبة له، سوى وسيلة للحصول على مطالبه المادية. يمر النمو الديني لدى الفرد بعدة مراحل:

1.3. **مرحلة الخيال والوهم**:

تسيطر خلال هذه المرحلة الأفكار والمعتقدات الوهمية والخيالية. تتميز بأخذ الطفل تصوراته حول إدراك الوجود من الوالدين مدفوعا بحب الاستطلاع، لذلك نجده يكثر من الأسئلة عن المواضيع الغيبية. يلجأ الوالدان في الغالب إلى تقديم إجابات تتماشى ومعتقداتهم، كما قد يمتنعان عن الإجابة. غير أن الطفل يميل إلى عدم تقبل تلك الإجابات لأن عقله لا يستطيع استيعابها وفهمها، مما يجعل تلك المواضيع تحط بهالة من الغموض والقداسة، فينشأ عنده خوف ورهبة اتجاهها ممزوجة بشيء من القلق(5).

2.3. **مرحلة التجسيد الشخصي**:

مع ظهور بعض القدرات العقلية، يبدأ الطفل في الاهتمام بمعرفة سيرة الشخصيات الدينية المهمة، كالرسل و الصحابة... كما يبدأ الشعور الديني لديه في النمو على أساس الثواب المرتبط بالجنة والعقاب المرتبط بالنار. مما يدفعه إل ممارسة الشعائر الدينية. كما أن الطفل يتبنى التفسيرات القائمة على أساس الظواهر الطبيعية، بعدما كانت في المرحلة السابقة قائمة على الوهم والخيال(6).

3.3. **مرحلة إرضاء الحاجات**:

يلجأ الطفل خلال هذه المرحلة إلى اختيار المفاهيم والرموز والعناصر التي ترضي حاجاته، وبترك المواضيع الدينية التي يرى بأنها لا تجلب له أية منفعة، ولا تلبي حاجة ملحة لديه. يقبل بما يقوله له الوالدان ويقنع نفسه بصحة قولهما، فيكبت شكوكه حول المواضيع الدينية، ويتقمص مفاهيم وآراء الوالدين(7).

4.3. **عقيدة الاندماجية**:

مع البلوغ تظهر لدى الفرد قدرات عقلية تمكنه من الفهم والنقد، لذلك تتحول المعتقدات والأفكار الدينية من كونها ذات منشأ خارجي إلى ذات منشأ داخلي. يطور المراهق التفكير التجريدي ويبدأ في وضع ما سبق له تعلمه عن الدين في نظام عقائدي متكامل. غير أنه في هذه المرحلة يبقى ملتزما بالمعتقدات الدينية للآخرين وغير قادر على التحليل الكفء لبدائل المعتقدات الدينية(8). في هذه المرحلة لا يزال المراهق قاصرا من الناحية الدينية وغير قادر على الاستقلال عن الآخرين.

5.3 **عقيدة الفردانية التأملية**:

لأول مرة يستطيع الفرد تحمل مسئولية معتقداته الدينية، وذلك باختيار ما يتناسب و قناعاته من جهة والمعايير الاجتماعية من جهة ثانية؛ فالمراهق يسعى إل التوفيق بين حاجاته واهتماماته وبين ما هو سائد في المجتمع. أثناء ذلك يطرح أسئلة مثل: هل يجب أن أقدم مصالحي أم مصالح الآخرين؟ هل ما نشأت عليه من عقائد نسبية أم مطلقة؟

يكون للتفكير المجرد وما طرأ على النمو العقلي من تطور دور هام في تحديد العقائد التي سيتبناها الفرد.

4. **مظاهر اليقظة الدينية**:

يبدأ الشعور الديني لدى الفرد، كما أسلفنا مع مرحلة الطفولة، غير أنه مع المراهقة تظهر ظاهرة تسمى لدى المختصين باليقظة الدينية، وهي تتعلق بما يطرأ على التفكير والسلوك والشعور الديني من تغير. أظهرت الدراسات أنه مع بداية البلوغ تقل نسبة ممارسة الشعائر الدينية، غير أنها ما تلبث أن تعود إلى مستواها السابق مع مرور أزمة المراهقة. حيث يبدي المراهق رغبة شديدة في الصلاة والعبادات الأخرى (9). هذا من الناحية السلوكية، أما من الناحية المعرفية فيتفشى في أوساط المراهقين الشك والحماس والإلحاد، ويتراوح تفكيرهم بين الرضا والحب والاحترام، وبين الخوف والبغض والسخط.

في دراسة أجراها كلارك حول سيكولوجية اليقظة الدينية، أوضحت أن متوسط سن حدوث اليقظة الدينية هو 12 سنة (10). ويرجع الباحثون هذا التغير في الشعور الديني لدى المراهق إلى:

-النضج العقلي: حيث تظهر بعض القدرات العقلية لدى المراهق مثل: ملكة النقد، التفكير المجرد...

-البلوغ الجنسي: وما يصاحبه من تغيرات سريعة تهز كيان المراهق.

-النمو الاجتماعي: باتساع دائرة علاقات الفرد.

الرغبة في اكتشاف الذات.

من أهم مظاهر اليقظة الدينية ما يلي:

1.4. **الحماس**:

يأخذ المراهق المتحمس الدين مأخذا أكثر جدية، ويبذل جهدا شخصيا كبيرا لدعمه، وتبرير أحكامه وتشريعاته وتسويده على ما سواه من أديان و اتجاهات. ذلك أن إتباع الدين كما هو بأوامره ونواهيه المعهودة لم يعد يشبع النهم الروحي للمراهق المتحمس. يرجع الحماس الديني في الغالب نتيجة ظهور حاجات نفسية جديدة كالرغبة في تأكيد الذات والنزعة الاجتماعية التي تدفع بالمراهق إلى الانخراط في المؤسسات الدينية بهدف تقديم خدماته للناس. هذا هو الحال في الحالة

الإيجابية، أما في الحالة السلبية، فقد يعتري المراهق حماسا وبدلا من أن يوجه نشاطه للخارج كما في الحالة الأولى، تنتابه حالات من الانفصام عن الواقع والكآبة ويغرق في أحلام اليقظة. ويكون ذلك نتيجة التركيبة النفسية للمراهق الذي غالبا ما يكون من النوع الانطوائي، نتيجة لشعوره بالقلق والذنب بسبب الدوافع الجنسية التي تلهب مشاعره (11). يتلون الحماس الديني بالسمات الغالبة في شخصية المراهق، لذلك يمكن تمييز عدة أنواع من الحماس:

أ- الحماس الداعي للتحرر من البدع والخرافات العالقة بالدين: يرى معتنقو هذا النمط أنه يجب فهم الدين فهما عميقا، كما يجب أن تسود شرائعه على ما سواها. ويعتبر المتحمس بمثابة المجدد للدين، وكأنه يرى أن عليه حتما أن يطوره، لذلك تجده ناقما متمردا على الدين التقليدي وعلى من يمثله من الناس. يتجلى ذلك في الواقع في كثرة جدال هذا النوع من المتحمسين مع أئمة المساجد ورجال الدين الرسمي.

ب-أما إذا كان المراهق المتحمس ذا شخصية انبساطية، انشغل بالنشاطات الاجتماعية ذات البعد الديني، وهذا لا يتعارض مع التسامح الديني؛ إذ لا يعيقه ذلك التوافق مع أهل الأديان الأخرى (12).

ج-أما إذا كان المتحمس ذا شخصية انطوائية، فهو يعجز بحكم طبيعته النفسية عن الخروج بإيمانه الجديد إلى المجتمع، لذلك يقنع بحياة دينية فردية يتحقق له فيها الأمن في ظل ارتباطه بالله. كما يعمل على ترويض نفسه على الأخلاق التي يأمر بها الدين، غير أن إنطوائيته تدفع به إلى الإحساس بالكآبة وبأن الحياة مأساة، ما يدفعه إلى الاستغراق في أحلام اليقظة والصلوات المستمرة.

د-قد يكون المراهق المتحمس من الذين يحملون تفكيرا خرافيا ذا عقلية بدائية ساذجة، يتطير بالأفعال والرموز التي تنذر بالشؤم، ما يدفعه إلى صبغ تدينه بهذه الصبغة ويجعل تدينه وسيلة للتعامل الاجتماعي(13).

2.4. **الشك**:

يظهر الشك لدى بعض المراهقين مع اكتمال النضج العقلي وتفتح قدرة النقد. غالبا ما يكون المدخل إليه بعض المبادئ والنظريات العلمية والرغبة في اكتشاف الذات ومحاولة ربط العالم مع خطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص (14). يؤكد أوزبل ذلك حين يقول:"إن الشك

تثيره الاكتشافات العلمية في ذهن المراهق، وهو تناقض سطحي لا يؤثر في جوهر الإيمان الديني". في نهايات المراهقة يسيطر العنصر المعرفي على الشعور الديني، كما يسيطر العنصر الانفعالي في بداياتها، لذلك يصبح المراهق أكثر قابلية للشك ولاسيما مع توفر بيئة متزمتة، وعدم أخذه لآرائه الدينية عن قناعة. لا يكون دائما الشك نتيجة للتأمل والتفكير، إذ قد يكون أحيانا بسبب ظروف شخصية كتعرض المراهق لصدم نتيجة فقدان أحد الأقارب أو الأصدقاء. في هذه الحالة يكون للبناء نفسي والمزاجي للمراهق دورا في مدى تقبله للصدمة؛ إذا كان ذا شخصية ضعيفة دفع به ذلك إلى الشك. ويتراوح الشك لدى المراهق بين الاهتمام النقدي العابر والارتياب الحاد في كل عقيدة من العقائد، ومعنى ذلك أنه لا يظهر فجأة، وإنما يكون موجودا في أعماق النفس (15).

3.4. **الإلحاد**:

تذهب هذه الفئة من المراهقين بعيدا حين تنكر وجود الله إنكارا صريحا. قد يحل محل إيمانها بالله إيمان من نوع آخر، كما يحدث عند أولئك الذين يتبنون المذاهب الوضعية، كالشيوعية...أو يتخذ موقفا إنكاريا على الإطلاق فلا يؤمن بأي شيء. نجد في بعض الأحيان أن المراهق يعلن صراحة عن إلحاده، بل و يتباهى به أما الملأ، وبكون ذلك نتيجة رغبته في التحرر والاستقلال وحب الظهور والاختلاف عن الناس. كما قد يكون التصريح بالإلحاد ليس بسبب المباهاة وإنما لظنه أنه بحق ملحد، وهو في الحقيقة تمرد وثورة على الدين وانتقاما منه، إذن فهو إقرار ضمني بوجود الله (16).

إن توهم الإلحاد ظاهرة شائعة بين هذه الفئة من المراهقين الذين ليسوا ملاحدة في الأصل، وإنما يدعون ذلك للأسباب التي ذكرناها من قبل، وينتهون بتصديق دعواهم. ما يدفع المراهق إلى اتخاذ هذا الموقف من الدين هو الخبرات الأليمة التي يتعرض لها بعض الأفراد في طفولتهم بسبب تزمت الوالدين وغياب روح الحوار والإقناع، كما قد يكون بسبب الانبهار بالنظريات العلمية والفلسفية وما تحمله من أفكار شاذة. فنجد معتنق الفكر الوضعي والمنكر لوجود الله يبقى على هذا الحال حتى يصل إلى مستوى تصبح معه النظرية الجديدة يقينا، وحينها ينبذ العقائد المناقضة لها. غير أن الكثير من المراهقين يرجع عن إلحاده إلى أحضان الدين. إذ أن التدين متأصل في النفوس لفترة ليست بالقصيرة، والشعور الديني له تاريخ طويل في الطفولة وذو جذور عميقة، وليس من السهل إزاحته بسبب اعتقادات طارئة(17).

خلاصة:

لقد أكدت الدراسات التي قام بها المختصون في علم النفس النمو أن النمو الديني هو جانب مهم من جوانب النمو، و تكمن أهميته في كونه قد يشمل جميع نواحي الحياة بحسب أهمية الدين في المجتمع المعني. كما أثبتت نتائج تلك الدراسات أن النمو الديني يسير باتجاه ثابت، وذلك جعل من الممكن التنبؤ بالسلوك الديني للإنسان انطلاقا من المعطيات التي تتوفر حول الجوانب النمائية الأخرى.

هذا، ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن للنمو الديني علاقات تأثير و تأثر مع مختلف مظاهر النمو، فإذا أخذنا، على سبيل المثال، النمو الجنسي، فإن الكثير من الباحثين لاحظ مسايرة النمو الدينيى للنمو الجنسي، وفسروا اليقظة الدينية التي تحدث في مرحلة البلوغ والتي تتزامن مع دخول الغريزة الجنسية مجال النشاط، فسروا ذلك بأنه إبدال للغريزة الجنسية وما يصاحبها من مشاعر الذنب إلى أهداف مثالية تتجلى في شكل الركون إلى الدين. وقس على ذلك المظاهر الأخرى للنمو.

الهوامش:

(ا) منسي محمد عبد الحليم ومحضر عفاف بن صالح /علم النفس النمو مركز الإسكندرية للكتاب /الإسكندرية /2001/ص 243

(2) وليامز نورمان و وليامز شيلا/ النمو الروحي والخلقي /ترجمة: العيسوي عبد الرحمن/ دار النهضة العربية/ بيروت/ 1992/ ص 131

(3) وليامز نورمان و وليامز شيلا/ نفس المرجع /134

(4) وليامز نورمان و وليامز شيلا/ نفس المرجع /135

(5) خوري توما جورج/ سيكولوجية النمو عند الطفل والمراهق /المؤسسة الجامعية للدراسات /بيروت/ 2000/ص102

(6) وليامز نورمان و وليامز شيلا/ نفس المرجع/135

(7) خوري توما جورج /نفس المرجع /102

(8) الريماوي محمد عودة /علم النفس النمو- الطفولة والمراهقة/ دار المسيرة للنشر /عمان /2001/ص 268

(9) السيد فؤاد البهي / الأسس النفسية لنمو- من الطفولة إلى الشيخوخة/ درا الفكر العربي / القاهرة/1998/ ص292

(10) وليامز نورمان و وليامز شيلا/ نفس المرجع /151

(11) معوض خليل ميخائيل /سيكولوجية النمو- الطفولة والمراهقة /مركز الإسكندرية للكتاب/ الإسكندرية /2003/ص393

(12) المليجي عبد المنعم والمليجي حلمي/ النمو النفسي /الطبعة 5/دار النهضة العربية /بيروت/ 2006/ص337

(13) المليجي عبد المنعم والمليجي حلمي /نفس المرجع /ص340

(14) وليامز نورمان و وليامز شيلا /نفس المرجع /151

(15) المليجي عبد المنعم والمليجي حلمي /نفس المرجع/ص345

(16) المليجي عبد المنعم والمليجي حلمي /نفس المرجع /ص348

(17) معوض خليل ميخائيل /نفس المرجع /ص396